هل الأب هو العنصر المهمل في الأسرة ؟

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 7 يوليو 2019

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

ذات يوم كنت جالساً مع صديق في مقهى – مقهى لا يقدم الشيشة – نشرب قهوة ونتسامر، وبعد لحظات قال لي صاحبي: هناك رجل خمسيني يراقبك منذ لحظات وكأنه يعرفك أو يرغب في التعرف عليك.

التفت بصورة تدريجية حتى لا ألفت الأنظار إلى حركتي، ولكن وقعت عيني على عيني ذلك الرجل الذي يراقبني، فحياني من بعيد بحركة من يده، وكذلك فعلت أنا، معتقداً أن الموضوع قد انتهى عند هذا الحد. ولكن بعد لحظات تقدم إلينا الرجل الخمسيني وقال: أنت فلان ؟

قلت: نعم، أنا هو.

فمد يده ليسلم عليّ وكذلك فعل مع صاحبي، ثم قال: هل يمكنني أن أجلس معكم قليلاً لأتحدث إليك ؟

في الحقيقة خفت أن يكون صاحب طلب، أو يريد مبلغاً من المال أو ما شابه ذلك، فهذا كثيراً ما أصادفه، لأن هناك العديد من البشر يعتقدون أن من

يكتب في الجرائد وتظهر صورته فيها يمتلك كنوز الأرض، عموماً وخجلاً من الموقف رحبت به وقدمت له الكرسي الذي بجانبي، فجلس.

قال: عفواً على الازعاج ولكنّ هناك أمرا يخنقني، ويكتم على أنفاسي وأريد البوح به لك، وأرجو أن تأخذ الموضوع بجد، وأرجو أن يصل الموضوع إلى الجريدة ويأخذ حظه في النشر.

قلت: هذا واجبي إن كان الموضوع يستحق.

قال: لا أعرف من أين أبدأ، ولكن فعلاً أشعر أن الموضوع يستحق، فأنا زوج وأب ولدي من العيال 4 من الإناث و3 من الذكور، وكنت طوال عمري أحاول بقدر طاقتي أن أوفر لهم الحياة بحيث لا يحتاجون – أبداً – إلى أحد، وقمت بتربيتهم على مبدأ الشورى والمحافظة على الآراء ونميت فيهم القدرة على اتخاذ القرار، وما إلى ذلك من القيم التربوية الحديثة.

وكذلك زوجتي لم أبخل عليها بشيء، فكل الذي كانت ترغب فيه، كانت تجده بين يديها سواء مباشرة أو بعد فترة من الزمن إن لم يكن لدي المبلغ الكافي لشرائه في ذلك الوقت، حتى جعلتها أفضل أخواتها معيشة وحياة، فكانوا دائماً يقولون لها – أي أخواتها – أنك تعيشين في سعادة مع هذا الزوج.

كنت أشعر دائماً أني أنا الأب الذي من المفروض أن أقدم التضحية لكل أفراد الأسرة، سواء عيالي أو زوجتي، فأنا المسؤول وهذا واجبي الرباني الذي أنزله

في القرآن الكريم، لذلك لم أبخل أبدًا ولم أخل بواجباتي أو بتربيتي مهما ضاق بي الحال، وكل تلك السنوات التي مرت كنت أنا محور حياة هذه الأسرة التي كونتها بكل جهد وكل قطرة، ولم أهتم أبدًا بنفسي واهتماماتي وطموحاتي، ولم أحفل بكل ما يأتيني من مشكلات في العمل والحياة خارج الأسرة، فأسرتي سر حياتي، كما يقال، وأنا فعلاً اتخذت هذا المبدأ مبدأ لي طوال عمري الذي قارب على الستين.

مرت الحياة على هذا المنوال، أنا الأب وعندما أعود إلى البيت من العمل في الظهيرة أجد أولادي وزوجتي في انتظاري وهم في قمة السرور والفرح، أولادي يتقافزون حولي وكل واحد منهم يحاول أن يسابق أخوته حتى يحكي لي مجريات يومه والأحداث التي مرت عليه في المدرسة، ومدى اجتهاده أو إخفاقه في بعض الأمور، ومن هناك كانت زوجتي تضحك وتحاول تهدئة الصغار حتى أغير ملابسي ونجلس على طاولة الطعام، وكنت أستمع إليهم واحدًا إثر الآخر، وأحاول ألا أهمل أحدًا منهم، فأستمع إلى هذا وأعلق ببضع كلمات على أحداث هذا، وأضحك لهذا حتى ننتهي من الطعام.

ثم يأتي الدور على زوجتي لتتحدث وترغي بعدما يفرغ الأطفال من الحديث، فهي تروي لي كل الأحداث التي صادفتها في يومها في العمل أو مع الجيران أو مع والديها، بمعنى آخر كل الأمور الحياتية، وهو حديث كل الأزواج، كم أفتقد ذلك الحديث.

مرت الأيام ويا ليتها لم تمر، فعندما كبر الأولاد قليلاً لم يعودوا ينتظروني في الصالة كما كان العهد بهم، ولم يتصايحوا ويتقافزوا حولي، كانوا ينتظرون في غرفهم، وعندما كانت توضع وجبة الغداء يأتون ثقالاً وعندما يشاهدوني جالسًا يلقون التحية الباردة من بعيد، وكأن هذا الرجل الذي كانوا يسمونه سابقًا – بابا – لم يعد موجودًا، أحاديثهم عن أحداث المدرسة لم تعد بالإسهاب الذي كان، فلم أكن اسمع منهم إلا بضع نكات وبضع حكايات حدثت في المدرسة، وعندما أحاول جرهم في الكلام فكانوا يتأففون، وكأن الحديث معي بات مزعجًا، يأكلون بسرعة وعندما ينتهون من وجبتهم، يسرعون إلى غرفهم مرة أخرى أو لمشاهدة التلفزيون أو اللعب في الألعاب الإلكترونية، ولم أشعر بذلك منذ البداية ولكن مع مرور الأيام شعرت بنوع من الغصة وخاصة أنهم يتحدثون بأريحية مع أمهم، وعندما كنت أقول لزوجتي إن هذا الموضوع بات يزعجني كانت تقول: لا تأخذ هذا الأمر بحساسية، فإن الأولاد لا يرغبون في إزعاجك. وهي – أي زوجتي – لم تكن تأتي لتتحدث معي في الغرفة، فكانت تجلس مع الأولاد لفترات طويلة وربما تنام في الصالة وتتركني وحدي ساعات طويلة فأنام، وربما من الملل.

كبر الجميع، فأصبحنا لا نلتقي على طاولة الطعام، كان الأولاد يمرون عليّ وأنا جالس في الصالة أنتظرهم كالغريب، ويلقون التحية الجافة وأنا

غريب، وسؤالهم الدائم: أين ماما ؟ حسنٌ، لا ضرر من السؤال عن الأم، ولكن ماذا عني أنا ؟ ألا أستحق السؤال والاهتمام ؟ ألا يوجد من يسأل عني ؟

وزوجتي كانت هي المرسال الذي ينقل لي رسائل وطلبات أولادي، هذا يريد مصروفًا، وذلك يريد مبلغًا من المال لشراء الحاجة الفلانية، والآخر يحتاج إلى مبالغ من المال للغرض الفلاني، وهكذا أصبحت وكأني البنك الذي يقدم النقود في البيت، لماذا لا يطلبون مني مباشرة ؟ أنا موجود لأجلكم، لماذا هذا التجاهل ؟

كانت زوجتي تقول: لا عليك، إنهم لا يريدون إزعاجك.

كنا عندما نجلس في الأوقات النادرة في السيارة في طريقنا إلى صلاة الجمعة أو إلى أي مكان ويدور الحوار حول أي موضوع، كانوا يضحكون على آرائي وأطروحاتي وكأني لا أفهم أو كأني أعيش في عصر آخر لم يصله النور بعد، حتى إن أحد أبنائي سألني ذات يوم: كيف كانت حياتكم في السابق، أبيض وأسود، وبدأوا يضحكون عليّ وعلى حياتنا السابقة، هذا إن اجتمعنا في مكان واحد، ولكن اليوم كانوا لا يرغبون في الركوب معي أو الجلوس معي، فقد كانوا يخجلون من وجودي بينهم وخاصة عندما يكونون مجتمعين مع أصحابهم، كانت الثواني معي تنقضي وكأنها ساعات مملة.

ذات مرة كنا في العمّرة وسألني بعضهم من أين نبدأ الطواف، فقلت: من الحجر الأسود، هنا قفز أحدهم وقال: هذا خطأ، عادة نبدأ من الركن اليماني. قلت: لا، الحجر الأسود هو بداية الطواف، وبدأ في مجادلتي وبإصرار، وفي النهاية قلت له: ابدأ من حيث رغبت. هكذا كانت تدور المناقشات حتى في المسائل المتفق عليها، المهم أنهم يريدون أن يخطئوني في أي قضية وحدث، وعندي الكثير من تلك المحادثات التي انتهت بفشلي في اقناع عيالي ليس لأني لا أعرف ولكنهم يصرون على أني لا أعرف وأن آرائي وأفكاري كلها خاطئة مهما كانت حتى إن تبين بعد ذلك أنها صحيحة لأنها من أصول الدين أو الحياة، ولكن لم يعد لحديثي معنى.

بدأ الأولاد يغادرون المنزل، فهذا سافر للدراسة خارج البلاد، والآخر تزوج، والثالث لا يعود إلى المنزل إلا متأخرًا بسبب الدوام والعمل، وأصبح البيت خاليًا وجافًا، وعلى الرغم من ذلك كنت أنتظر هذا حتى يعودوا في المساء، أنتظر تلك حتى تعود من الجامعة، أنتظر في الصالة من غير عمل، أقلب قنوات التلفزيون حتى يستقر الجميع في أسرّتهم وبعد ذلك أذهب للنوم.

تصور عندما يتصلون بالهاتف، يتصلون فقط بوالدتهم، يتحدثون معها ولا يفكرون حتى بالحديث معي، حتى إن كنت جالسًا معها في الصالة، حتى إن نبهتهم والدتهم لوجودي معها، ولكن لا تأثير. وهذا ليس لعيالي الموجودين هنا فقط وإنما هذا عادة يحدث مع عيالي الذين يدرسون في

الخارج، يتحدثون مع والدتهم ويتصلون بها بين الحين والآخر، وأنا هاتفي جاف لا ينطق.

كثرت جلسات زوجتي وحدها، فالجزء الأكبر من النهار ليست معي، تقوم بأعمال المنزل على الرغم من وجود الخادمة، تطبخ وتنظف وما إلى ذلك، وعندما تنتهي أعمال المنزل تتجاهلني وتجلس مع من بقيّ من الأولاد، ثم تذهب للنوم وأنا أجلس وحدي، وأتحدث مع نفسي وأحاورها وكأني لم أعش في حياة كل هؤلاء البشر الذين من المفروض أنهم يعيشون معي.

أجلس ساعات وحدي، على الرغم من كل محاولاتي للتحدث مع هذا والسؤال عن هذا وفتح أبواب الحوار مع تلك، ولكن كل تلك المحاولات لا تجد أمامها إلا الأبواب المغلقة، وفي بعض الأحيان أغادر المنزل – متعمداً – من غير أن يشعر بي أحد، وأترك البيت لساعات من غير حاجة لذلك، من باب أنه ربما يفتقد وجودي أحد وربما يرفع أحدهم سماعة التلفون ويسألني: أين أنت؟ ولكن لا أحد، حتى زوجتي لا تسأل ولا تهتم، وكأن الذي خرج إنسان غير مهم، ثم أعود إلى المنزل ولا أحد يسأل أين كنت، ومتى خرجت ؟ أو لماذا تأخرت ؟ أو أي سؤال آخر، لا شيء، وكأن وجودي في المنزل لم يعد له أهمية.

هنا وجدت – أنا الكاتب – نفسي أتدخل في حديث هذا الرجل الخمسيني حتى لا يأخذ الحديث منحى الميلودراما أو التراجيديا المأساوية، فقلت له: استهد باللّه سبحانه وتعالي، ربما فعلاً أبناؤك وحتى زوجتك لا يرغبون في

إزعاجك، فيتركونك تفعل ما تشاء في الوقت الذي تشاء خوفًا على مشاعرك، فلا يريدون تقييدك في البيت أو شيء من هذا القبيل.

قال: أريدهم يزعجوني، أريدهم يحدثوني، أريدهم يسألون عني، فأنا لم أعد قويًا كما كنت في شبابي، أنا اليوم بدأت أدخل مرحلة الشيخوخة، فأنا أحتاج إلى اهتمام، أحتاج إلى رعاية، أنا اليوم أحتاج إلى حب، كل هذه الأمور أفتقدها في أسرتي التي عشت من أجلها ولأجلها.

لماذا ينظر الأبناء إلى الأب على أنه لا يحتاج إلى الحب والرعاية، لم نعد أقوياء إننا في مرحلة الوهن والضعف، نحتاج إلى ابنائنا وبناتنا، نحتاج إليهم حولنا، نحتاج فقط إلى الحب والرعاية، لا نحتاج إلى المال ولا إلى الأكل ولا أي شيء، فقط الحب والرعاية، نحتاج إلى أن يدخلوا علينا لا ليقبلوا رؤوسنا وأيدينا وإنما نحتاج إلى أن يجالسونا ويلهون معنا، يتحدثون معنا، يسامرونا، نحتاج إلى وجودهم معنا وحولنا، نحن الآباء لم نعد أقوياء كما كنا، نحن في مرحلة الوهن والضعف نحتاج إلى أولادنا.

أنا هنا في هذا المجمع منذ الساعة الرابعة عصرًا والآن الساعة العاشرة ليلاً، وليس بي حاجة لأكون هناك، ومع ذلك تلفوني ساكت لا يتحدث، لا أحد يسأل ولا أحد يفكر بي، هل تعتقد أن هذا من باب لا يرغب أحد في إزعاجي؟

سكت أنا، فتجمدت كلماتي، على الرغم من سخونة كلمات الرجل، جف حلقي، تحجرت الدموع في عيني، فلا أعرف ماذا أقول أو ماذا أفعل.

ابتسم الرجل، ثم وقف مغادرًا وقال: آسف على الازعاج، ولكنها غصة في قلبي رغبت في إخراجها.

ثم غادر ببساطة كما جاء ببساطة.